

أولاً: عرض شيء من النماذج القرآنية في هذا المجال :

المثال الأول :

أرسل الله تعالى صفيه وكليمه موسى – صلوات الله وسلامه عليه – خير أهل زمانه – وهو من أهل العزم من أصحاب الرسالات السماوية .. إلى شر الطواغيت البشرية في زمانه .. ، رجل بلغ به العتو والتكبر إلى أن يقول: ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾<sup>(١)</sup> رجل بلغ الغاية في القدرة على التلاعب بمشاعر الناس والتفنن بمخادعتهم ..! تارة يسخر من الألوهية والربوبية ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ ﴿ يَا هَامَانَ ابْنَ لِي صِرَاحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ كَاذِبًا ﴾<sup>(٢)</sup> وأحياناً من مقام الرسالة والنبوة ﴿ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾<sup>(٣)</sup> وتارة يعتز بجبروته وجاهه وسلطانه ﴿ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾<sup>(٤)</sup> وتارة يتطاول على مخالففيه بالتهديد بإيقاع أنواع العقوبات بهم ﴿ لَسِنِ اتَّخَذَتْ إِلَهاً غَيْرِي لِأَجْعَلَكَ مِنَ الْمُسْجُونِينَ ﴾<sup>(٥)</sup> وقد بلغ به العتو والتجبر أنه كان يرى أن الإيمان بالله تعالى مشروط بإذنه وتصريحه!! ولذا أنكر على السحرة لما أعلنوا إيمانهم بموسى وبربه فقال: ﴿ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ .. ﴾<sup>(٦)</sup>؟ ومن فرط حيله وخبثه أنه كان يظهر نفسه بمظهر الشفيق على مصلحة

(٢) غافر الآيتان ٣٦، ٣٧ .

(٤) الزخرف آية ٥١ .

(٦) طه آية ٧١ .

(١) القصص آية ٣٨ .

(٣) الزخرف آية ٥٢ .

(٥) الشعراء آية ٢٩ .

الشعب ودينه وعقيدته!! وأنه وحده المحافظ على دينهم وأخلاقياتهم...!! فيقول: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾<sup>(١)</sup> يقول هذا ليبرر مطالبته بقتل موسى وسفك دمه. ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾<sup>(٢)</sup> هذا غيظ من فيض وقطرة من بحر من سلوك هذا الجبار الظالم وسيرته، والذي أرسل الله له موسى وهارون - صلوات الله وسلامه عليهما أجمعين. ولقد كان موسى - ﷺ - يدرك حال هذا الطاغوت.. كيف لا وهو الذي تربى ونشأ في قصره...! فقال - صلوات الله وسلامه عليه - معبراً عن هذه الحقيقة.. ﴿إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى﴾<sup>(٣)</sup>.

والذي يهمننا هنا هو معرفة الأسلوب الذي أمر موسى باتخاذها في مخاطبة هذا المتغطرس.. إنه الرفق بأعلى صورته وأشكاله. قال تعالى: ﴿أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ (٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾<sup>(٤)</sup> وقد أشار الله تعالى إلى ذلك القول اللين<sup>(٥)</sup> في سورة النازعات حيث قال: ﴿أَذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ (١٧) فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى (١٨) وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى﴾<sup>(٦)</sup> فقد جاء بالدعوة هنا بأسلوب عجيب!! إنه أسلوب العرض، ومن عادة النفوس التي لم تروض بالإيمان بالله والخضوع لأوامره أنها تأنف من أسلوب الأمر

(١) غافر آية ٢٦.

(٢) غافر آية ٢٦.

(٣) طه آية ٤٥.

(٤) طه الآيتان ٤٣، ٤٤.

(٥) ذكر بعض المفسرين أن القول اللين هنا هو تكنيته حال المخاطبة.

(٦) النازعات الآيات ١٧ - ١٩.

والنهي المباشرين! وهذا من جراء الكبر الذي احتوته تلك النفوس وانطوت عليه!. ثم إنه لم يقل له «أزكك» بل قال: «تزكى» كيلا يأنف ويتكبر ويتعالى.

وهذا من أهم ما ينبغي للمحتسب التخلق به، فلا ينبغي أن تضع نفسك أمام من تحتسب عليه موضع النزيه الرفيع المتعالي، بل تواضع له واعمل على الدخول إلى قلبه والوصول إلى نفسه.

ثم عقب ذلك بتهديد محكم بلطف أيضاً فقال: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾<sup>(١)</sup> فأنت ترى أنه لم يخصه بذلك، ولم يسفهه مع كونه سفيهاً، كما لم يصمه بالكفر والظلم والكبر..<sup>(٢)</sup>.

ولقد حصل هذا كله مع علم الله تبارك وتعالى المسبق أنه لن يؤمن.. ولكنها الحكمة البالغة في تبليغ الدعوات وإقامة الحجج والبراهين على المكذبين المنحرفين وابتلاء الناس بعضهم ببعض.. ﴿وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمُ بَعْضًا لَّهُدَمَتِ سَوَامِعٌ وَبِيعَ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدٌ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾<sup>(٣)</sup>.

فعليك بالرفق أخي المحتسب فإنك لست بأفضل من موسى - ﷺ - ، وليس من تأمره وتنهاه بأعتى من فرعون!! وأنت على ذكر بما مر معنا في قوله - ﷺ - : «ما كان الرفق في شيء إلا زانه وما نزع من

(٢) انظر أصول الدعوة (٤٦١ - ٤٦٢).

(١) طه آية ٤٨.

(٣) الحج آية ٤٠.

شيء إلا شانه»<sup>(١)</sup>.

### المثال الثاني:

هو مؤمن آل فرعون ..! ذلك الرجل الذي حركه إيمانه المكتوم في وجه ذلك الطاغوت الذي مر بك شيء من حاله ومقاله في المثال الذي قبل هذا لما قال ذلك الطاغية: ﴿ذُرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾<sup>(٢)</sup> فتحرك ذلك المؤمن بشتى الأساليب ليثني نظرهم أولاً عن هذه الجريمة الشنيعة .. ثم حاول بعد ذلك تقريب الإيمان إلى قلوبهم ودعوتهم إليه .. أو أن يتركوا موسى - ﷺ - وشأنه على أقل تقدير.

فقام بتفضيع هذا العمل المنكر في نفوسهم أيما تفضيع .. فقال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾<sup>(٣)</sup>؟ فالمنكر ينبغي أن يقبح أمره في النفوس ويبرز بصورته المشوهة المقنونة. لقد عظم هذا المؤمن على أولئك الكفار هذا التوجه الخطير ..! هل الاعتقاد بالله رباً وإلهاً ومعبوداً أمر يستحق العقوبة بالقتل!

كيف يكون هذا وهو مع ذلك يحمل برهاناً على قوله: ﴿وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾<sup>(٤)</sup> بل وعلى أسوأ الفروض والتقديرية فيما لو اعتبر كاذباً - وحاشاه ذلك - فإن تبعة هذا الكذب راجعة عليه ﴿وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ﴾<sup>(٥)</sup>. فهو سيلقى مصيره لا محالة .. وأما إن كانت الثانية وهي وقوع صدقه وثبوتها فإنكم

(٢) غافر آية ٢٦ .

(١) تقدم تخريجه ص (١٩٣).

(٣) (٤) (٥) غافر آية ٢٨ .

ستكونون معرضين لما وعدكم به من العقوبة: ﴿وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ (١).

ثم يبدأ التعريض بهم على وجه التهديد لكن بأسلوب خفي لا يؤخذ عليه، فهو كما أنه ينطبق عليهم في حال كونه صادقاً وهم مكذبون مسرفون في ذلك.. ينطبق على موسى ﷺ، أيضاً على الاحتمال الأول - الباطل - ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ (٢).

وحينما يقرر لهم هذا المبدأ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ يصرح لهم بمغبة التكذيب وعاقبته مذكراً لهم بما هم فيه من النعم التي يخشى عليهم من زوالها ﴿يَا قَوْمِ لَكُمْ الْمَلِكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا﴾ (٣)؟ وتأمل أسلوب مخاطبته إياهم في قوله: ﴿يَا قَوْمِ﴾ وقوله: ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا﴾ فهو يحشر نفسه معهم في انتظار الزيادة من النعم، والخوف من سوء العاقبة.. ونزول العذاب.. وهذا ما ينبغي أن يراعيه المحتسب والداعية في عمله.. عليه أن يخاطب الناس من منطلق الشفقة والرحمة.. لينقذهم مما هم فيه من الانحراف.. فإن أمرهم يهيم وهو وجل عليهم منتظر مصيره معهم!! وهذا ظاهر في الآية.

ثم شرع يذكّرهم بعقوبات المجترئين على حدود الله ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾ (٣٠) مثل دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودٍ

(٢) غافراًية (٢٨).

(١) غافراًية ٢٨.

(٣) غافراًية ٢٩.

وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ ﴿١﴾ ثم لا يقف عند هذا فحسب، بل يذكر بما بعده وأكبر منه وهو يوم التناد! يوم القيامة فيقول: ﴿وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ (٣٢) يَوْمَ تُؤَلُّونَ مَدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ (٢).

ثم يذكرهم بعد ذلك ببعض جرائمهم الماضية وهو موقفهم من يوسف - ﷺ - وشكهم في رسالته .. وأن ذلك ما ينبغي أن يتكرر مع موسى - ﷺ - فيقول: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلِ الْبَيِّنَاتِ فَمَا زَلْتُمْ فِي شَكِّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا﴾ (٣)(٤).

فهذا الأسلوب كم له من أثر بليغ في قبول الحق والخضوع له، ولو أن يجعل صاحب المنكر يكف عن منكره حياءً وخجلاً من نفسه أو أمره!!

فأنت حينما تقول لصاحب المنكر: إنني أخاف عليك مغبة فعلك هذا وأشفق عليك من عقوبة الله جل وعلا .. فلا تضيع آخرتك ولا تبعها بدنياك، وإنما نحن إخوة وعلينا أن نتناصح فيما بيننا. كما أمر الله تعالى .. ونحو هذا الكلام تقول .. فإن الغالب قبول الناس ما أمرتهم به وتركهم ما نهيتهم عنه .. لكنك إذا أتيتهم محتقراً .. وكلمته كما تكلم أصغر غلمانك فإنه سوف يتمسك بما هو عليه وتأخذه العزة بالإثم.

(٢) غافر الآيتان ٣٢، ٣٣.

(١) غافر الآيتان ٣٠، ٣١.

(٣) غافر آية ٣٤.

(٤) الظلال (٢٤/٦٨ - ٧٣).

ثانياً : عرض بعض النماذج من السنة في الرفق :

المثال الأول :

قال أبو هريرة - رضي الله عنه - : « دخل أعرابي المسجد ،  
ورسول الله ﷺ جالس فقال : اللهم اغفر لي ولمحمد ، ولا تغفر لأحد  
معنا ! . فضحك رسول الله - ﷺ - وقال : لقد احتظرت واسعاً . ثم  
ولى حتى إذا كان في ناحية المسجد فشج يبول . فقال الأعرابي بعد أن  
فقه : فقام إليّ بأبي وأمي ، فلم يؤنب ولم يسب ، فقال : إن هذا المسجد  
لا يُبال فيه ، وإنما بُني لذكر الله وللصلاة . ثم أمر بسجل من ماء فأفرغ  
على بوله »<sup>(١)</sup> وجاء في بعض روايات الحديث : « فوثبت إليه بعض  
القوم ، فقال رسول الله ﷺ : لا تزرموه » فهذا الرجل جمع بين الجهل  
والجفاء اللذين هما من خصال الأعراب ، فراعى النبي - ﷺ - جهله  
وما ألفه من عدم المبالاة حيث ظهر ذلك في بوله في المسجد . . فنهاهم  
- ﷺ - عن زجره قائلاً لهم : « لا تزرموه بوله » خشى - ﷺ - من  
لحوق الضرر به فأمر بإمهاله حتى يفرغ من تبوله في المسجد !

---

(١) البخاري في كتاب : الأدب باب : الرفق في الأمر كله . حديث رقم (٦٠٢٥) الفتح :  
(١٠ / ٤٤٩) ، ومسلم في كتاب الطهارة . الأحاديث رقم (٩٨ - ١٠٠) / ٣  
١٩٠ ، وهذا اللفظ عند أخرجه ابن ماجه ، في كتاب : الطهارة باب : الأرض يصيبها  
البول كيف تغسل . الأحاديث (٥٢٨ - ٥٣٠) (١ / ١٧٦) من حديث أبي هريرة  
رضي الله عنه .

هب أنك رأيت حالة تشبه هذه! كيف يكون تصرفك؟!!

إنه لا بد من ترويض النفوس على تلك الأخلاق الفاضلة والحلم  
الواسع من أجل أن يقبل منا الناس دعوتنا ويستجيبيوا لما نأمرهم به من  
أمر الله ورسوله - ﷺ - ويجتنبوا ما نحثرهم منه مما نهى الله عنه  
ورسوله - ﷺ - .

### المثال الثاني :

عن معاوية بن الحكم السلمي - رضي الله عنه - قال : « بينا أنا  
أصلي مع رسول الله - ﷺ - إذ عطس رجل من القوم، فقلت :  
يرحمك الله! فرماني القوم بأبصارهم فقلت : واثكل أمياه! ما شأنكم  
تنظرون إليّ؟ فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم . فلما رأيتهم  
يصمتونني لكنني سكت، فلما صلى رسول الله - ﷺ - فبأبي هو  
وأمي! ما رأيت معلماً قبله ولا بعده أحسن تعليماً منه، فوالله  
ما كهرني ولا ضربني ولا شتمني، قال : إن هذه الصلاة لا يصلح فيها  
شيء من كلام الناس إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن»<sup>(١)</sup> .

فهذا والذي قبله فيه بيان هديه - ﷺ - في تعليم الجاهل الذي  
وقع منه المنكر بسبب جهله وقلة علمه .

أما بيان هديه - ﷺ - مع من عرف الحكم لكنه أتي من قبل  
الشهوة وهوى النفس فهو في المثال الثالث الذي سيأتي .

---

(١) مسلم في كتاب : المساجد باب تحريم الكلام في الصلاة، حديث رقم (٥٣٧)  
(٣٨١/١) .

### المثال الثالث :

عن أبي أمامة - رضي الله عنه - أن فتى شاباً أتى النبي - ﷺ -  
فقال : يا رسول الله إئذن لي بالزنا . فأقبل القوم عليه فزجروه . وقالوا :  
مهّ، مهّ . فقال : ادنّه، فدنا منه قريباً . قال : فجلس، قال : أتجبه لأمك؟  
قال : لا والله، جعلني الله فداءك . قال : ولا الناس يحبونه لأمهاتهم .  
قال : أفتجبه لابنتك؟ قال : لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداءك  
قال : ولا الناس يحبونه لبناتهم . قال : أفتجبه لأختك؟ قال : لا والله  
جعلني الله فداءك قال : ولا الناس يحبونه لأخواتهم . قال : أفتجبه  
لعمتك؟ قال : لا والله جعلني الله فداءك قال : ولا الناس يحبونه  
لعماتهم . قال : أفتجبه لخالتك؟ قال : لا والله جعلني الله فداءك . قال :  
ولا الناس يحبونه لخالاتهم . قال : فوضع يده عليه وقال : اللهم اغفر  
ذنبه، وطهر قلبه، وحصن فرجه . فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى  
شيء<sup>(١)</sup> .

فهذا الرجل كان من المصدقين بما جاء به النبي ﷺ، وهو مع ذلك  
عالم بحكم تلك الفاحشة، ولذلك استأذن النبي - ﷺ - في  
مقارفتها .

ولا شك أن مثل هذا الطلب أمر مثير للنفس ! لكن رسول الله -  
ﷺ - لم يزجره، وإنما خاطبه بأسلوب آخر . . نبهه إلى أن يضع نفسه  
موضع غيره . . فيحب لغيره ما أحبه لنفسه، كما يكره لغيره ما يكره  
لنفسه .

(١) أخرجه أحمد (٢٥٦/٥) وإسناده صحيح .

فهذا الشاب الذي يتتبع أعراض المسلمين ومحارمهم يُسأل :  
« أترضى ذلك لأهلك ومحارمك؟ ولا شك أن الجواب يكون بالنفي!  
فيقال له : كيف ترضاه لعرض غيرك!؟

وسل من رأيته يغتتاب الناس : أترضى أن يغتتابك الآخرون!؟

إن وضع النفس المستشرفة للوقوع في المعاصي موضع المساءلة هذه  
لحريٌّ أن يزجرها ويكفها عما تصبو إليه من معصية الله تعالى .

لكن لو افترض أن هذا الذي وجهت إليه ذلك السؤال أخذته العزة  
بالإثم فتطاول وتمادى - كما يقع في بعض الأحيان - فهناك أساليب  
مغايرة يمكن استخدامها معه . وأما هديه - ﷺ - مع من كان والغا  
في الشرك بالألوهية فهو :

#### المثال الرابع :

عن عمران بن الحصين - رضي الله عنهما - « أن قريشاً جاءت إلى  
الحصين وكانت تعظمه، فقالوا: له: كلم لنا هذا الرجل، فإنه يذكر  
آلهتنا ويسبهم، فجاؤوا معه حتى جلسوا قريباً من باب النبي - ﷺ -  
فقال: وسَّعوا للشيخ. وعمران وأصحابه متوافرون، فقال حصين:  
ما هذا الذي بلغنا عنك أنك تشتم آلهتنا وتذكرهم، وقد كان أبوك  
حصينة وخيراً.

فقال: يا حصين: إن أبي وأباك في النار، يا حصين: كم تعبد من  
إله؟ قال: سبعة في الأرض وواحد في السماء. قال فإذا أصابك الضر

من تدعو؟ قال: الذي في السماء. قال: فإذا هلك المال فمن تدعو؟  
قال: الذي في السماء. قال: فيستجيب لك وحده وتشركهم معه؟!  
أرضيته في الشكر؟ أم تخاف أن يغلب عليك؟!

قال: ولا واحدة من هاتين؛ وعلمت أنني لم أكلّم مثله. قال:  
يا حصين أسلم تسلم... الخ<sup>(١)</sup>.

ففي هذه الواقعة رأيت كيف جاء الحصين معلماً للنبي - ﷺ -  
ومنكرًا ما جاء به .. جاء بهذا الاعتبار بعد أن تقوى به أعداء النبي  
- ﷺ - فسمع - ﷺ - كلامه دون أن يقاطعه في مقاله .. وهذا  
معروف من أدب النبي - ﷺ - مع محدثه<sup>(٢)</sup> .. ومن المعلوم أن  
الإنصات لكلام الإنسان وترك مقاطعته أمر يسحر النفوس .. ويجعلها  
أكثر تعلقاً واستماعاً لما يقوله المتكلم؛ بل إن مثل هذا الخلق النبيل  
يفرض على المقابل احترام صاحبه وما قال .

ثم إن النبي - ﷺ - اتخذ معه أسلوباً جعله يقرر فيه الحق بنفسه  
ويعلنه في كل مرة من المرات التي يوجه إليه السؤال فيها .. حتى  
كانت النتيجة أن انتهى به الأمر إلى محجة واضحة لا يزيغ عنها إلا

---

(١) أحمد بإسناد صحيح (٤/٤٤٤)، والترمذي في كتاب: الدعوات، باب: (٧٠)،  
حديث رقم (٣٤٨٣) (٥/٥١٩)، والطبراني، حديث رقم (٣٩٦)  
(١٨/١٧٤)، وعزاه الحافظ إلى ابن السكن وابن خزيمة، وحكم الحافظ على اسناده  
عند أحمد والنسائي بالصحة. راجع الإصابة (١/٣٣٧).  
(٢) وقد حصل مثل هذا مع عتبة بن ربيعة والحادثة في ذلك مشهورة معلومة. انظر  
تفسير ابن كثير (٤/٩٠ - ٩١).

هالك .. مع ما في هذه المحجة البيضاء من الموافقة لفطرته!! فما وسعه  
إلا أن يعلن دخوله في دين الله عز وجل والانضمام إلى جند التوحيد  
والإيمان .

أخي المحتسب!! أليس عجيباً أن يأتي الخصوم بمن يتقوون به في  
المنافرة والمخاصمة على وجه المغالبة والإبطال .. فينقلب هذا المعين إلى  
الجهة التي جاء لإبطالها!؟

هب أن الرسول - ﷺ - اكتفى بتعنيفه وزجره، والاستخفاف  
بعقله وتفكيره ومعبوداته من دون الله تعالى .. كيف تكون  
النتيجة!؟

ثالثاً: عرض شيء من النماذج من مقالات أهل العلم لمن يبينون له خطأه<sup>(١)</sup>:

لعل ضرب المثال بقريب العهد من عصر السامع أو القارئ يكون أوقع في النفس وأبلغ في التأثير.

ذلك لأن السامع يدرك أن هذا الأمر موجود في واقعه أو ما يقاربه وأن تكراره سهل وميسور في الوقت الذي يعيش فيه.. فتطمئن نفسه بهذا ويقوى تعلقه به، وبالتالي فإنه يسعى إلى محاذاته والتشبه به.. من أجل ذلك آثرت أن تكون الأمثلة التي أعرضها للقارئ في مثل هذه المناسبة قريبة ومنتقاة من العهود المتأخرة.. للأمر الذي عرفت.. ولتقارب المشكلات من جهة النوع.. ولتشابه الأحوال بين أهل العصور المتقاربة إلى حد ما.

**النموذج الأول:** مما لا يخفى على من له أدنى إلمام أو معرفة بتاريخ دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله - والظروف التي لابتستها.. أنه رُمي من قِبَل أعدائه بشتى أنواع التهم.. فكفره قوم وبدعه آخرون!!..

وكان بينه وبين خصومه وغيرهم مكاتبات كثيرة يرد بها على

---

(١) من الأمثلة في ذلك ما كتبه الليث بن سعد رحمه الله لمالك بن أنس. أنظر أعلام الموقعين (٣/٨٣ - ٨٨). وانظر نماذج من رسائل الشيخ محمد بن عبد الوهاب في الدرر السنوية (٨/٥٤ - ٥٥، ٦٠ - ٦١، ٦١، ٩٨).

باطلهم ويجلي فيها الحق الذي يعتقده ويدعو إليه .. وأسوق لك أخي القارئ نموذجين هما عبارة عن جزأين من رسالتين من رسائله الشخصية :

**فالأولى منهما** وهي التي قال في مطلعها بعد أن حمد الله وأثنى عليه .. من محمد بن عبد الوهاب إلى ( ... ) - حفظه الله تعالى - .. أما بعد : فقد وصل إلينا من ناحيتكم مكاتيب فيها إنكار وتغليظ علي، ولما قيل إنك كنت معهم، وقع في خاطر بعض الشيء؛ لأن الله سبحانه نشر لك من الذكر الجميل، وأنزل في قلوب عباده لك من المحبة ما لم يؤته كثيراً من الناس، لما يذكرك عنك من مخالفة من قبلك من حكام السوء<sup>(١)</sup>، وأيضاً لما أعلم منك من محبة الله ورسوله، وحسن الفهم، واتباع الحق، ولو خالفك فيه كبار أئمتكم ..»<sup>(٢)</sup>.

**وأما الثانية منهما** فهي التي قال في أولها بعد أن حمد الله وأثنى عليه .. « من محمد بن عبد الوهاب إلى الشيخ ( ... ) زاده الله من الإيمان، وأعاده من نزغات الشيطان؛ أما بعد : فالسبب في المكاتبة أن ( ... ) ذكر لنا عنك كلاماً حسناً سر الخاطر، وذكر عنك أنك طالب مني المكاتبة بسبب ما يجيئك من كلام العدو من الكذب والبهتان، وهذا من الواجب من مثلك أنه لا يقبل كلاماً إلا إذا

---

(١) كان المخاطب قاضياً في ناحيته .

(٢) الدرر السننية (١/٢٧)، وراجع أيضاً الرسالة الأخرى (٤٠ - ٤١) .

(٣) المصدر السابق (١/٦٢ - ٦٤) .

تحققه...» (٣).

**النموذج الثاني:** وهو عبارة عن رسالة كتبها العلامة إسحاق بن عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ - رحمه الله - وكان مما قال فيها: «... من إسحاق بن عبد الرحمن إلى المحب المكرم: عبد الله بن أحمد وفقه الله للطريق الأحمد، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وغير ذلك الموجب لهذه المكاتبة النصيحة، وحسن الظن بك، وأتيقن أن الحق ضالتك...» (١).

**النموذج الثالث:** وهو تلك الرسالة البالغة الأثر.. والتي لا تصدر إلا من عالم ذي حكمة وخلق رفيع.

وهذه الرسالة التي أسوق لك بعضاً مما تضمنته هي ما كتبه العلامة الشيخ حمد بن عتيق إلى العلامة صديق حسن خان لما اطلع على تفسيره فرأى فيه بعض المسائل التي جرى فيها المؤلف على طريقة المتكلمين ومنهجهم.. فقال فيها: «... من حمد بن عتيق إلى الإمام المعظم، الشريف المقدم، المسمى «محمد»، الملقب «صديق»، زاده الله من التحقيق، وأجاره في مآله من عذاب الحريق.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد: فالموجب للكتاب إبلاغ السلام والتحفى والإكرام شيد الله بك قواعد الإسلام، ونشربك السنن والأحكام.

---

(١) المصدر السابق (١/٣٣٢ - ٣٤١).

اعلم وفقك الله، أنه كان يبلغنا أخبار سارة بظهور أخ صادق ذي فهم راسخ، وطريقة مستقيمة، يقال له «صديق» فنفرح ونُسِرَّ.. ثم وصل إلينا كتاب الحطة وتحرير الأحاديث في تلك الفصول فازدنا فرحاً. وكان لي ابن يتشبت بالعلم ويحب الطلب، فجعل يتوق إلى اللحوق بكم، والتخرج عليكم، والالتقاط من جواهركم، لذهاب العلم في أقطارنا.. فبينما نحن كذلك إذا وصل إلينا التفسير بكامله فرأينا أمراً عجباً ما كنا نظن أن الزمان يسمح بمثله وما قرب منه.. فلما نظرنا في ذلك التفسير تبين لنا حسن قصد منشييه وسلامة عقيدته، وتبعده من تعمد مذهب غير ما عليه السلف الكرام.. فزاد اشتياق التائق وتضاعفت رغبته.. ولما رأينا ما من الله به عليكم من التحقيق وسعة الاطلاع، وعرفنا تمكنكم من الآلات، وكانت نونية ابن القيم المسماة بالكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية بين أيدينا، ولنا بها عناية، ولكن أفهامنا قاصرة، وبضاعتنا مزجاة من أبواب العلم جملة.. غلب على الظن أنك تقدر على ذلك<sup>(١)</sup> فافعل ذلك يكن من مكاسب الأجور.. ولنا مقصد رابع مهم وهو أن هذا التفسير.. وقفت فيه على مواضع تحتاج إلى تحقيق، وظننت أن لذلك سببين: أحدهما: أنه لم يحصل منكم إمعان نظر في هذا الكتاب بعد إتمامه، والغالب على من صنف الكتب كثرة ترداده وإبقائه في يده سنين يبيده ويعيده.. ولعل الأصحاب عاجلوك بتلقيه قبل ذلك. والثاني أن ظاهر

---

(١) أي على شرحها.

الصنيع أنك أحسنت الظن ببعض المتكلمة، وأخذت من عباراتهم بعضاً بلفظه وبعضاً بمعناه، فدخل عليك شيء من ذلك .

وأنا اجترأت عليك وإن كان مثلي لا ينبغي له ذلك لأنه غلب على ظني إصغائك إلى التنبيه، ولأن من أخلاق أئمة الدين قبول التنبيه والمذاكرة، وعدم التكبر وإن كان القائل غير أهل؛ ولأنه بلغني عن بعض من اجتمع بك أنك تحب الاجتماع بأهل العلم، وتحرص على ذلك، وتقبل العلم ولو ممن هو دونك بكثير، فرجوت أن ذلك عنوان توفيق، جعلك الله كذلك وخيراً من ذلك..»<sup>(١)</sup>.

### ● متى يكون الرفق؟

إن ما ذكر من الرفق لا يعني أنه الأسلوب الوحيد للاحتساب، وإنما أردنا التأكيد عليه ولفت الأنظار إلى أهميته..<sup>(٢)</sup> وإلا فإن المرء قد يداوي أحب الناس إليه بالكي بالنار أو يبتز عضواً من أعضائه!  
فإذا كان المٌحتسب عليه معانداً فإنه يستحق من التغليظ ما لا يستحق الجاهل .

قال القاضي عياض: « ويرفق في التغيير جهده بالجاهل وبذي العزة الظالم المخوف شره، إذ ذلك أدعى إلى قبول قوله، كما يستحب أن يكون متولي ذلك من أهل الصلاح والفضل لهذا المعنى، ويغلظ على

(١) مجموعة رسائل الشيخ حمد بن عتيق (٧٣ - ٨٣) .

(٢) انظر أصول الدعوة ١٨٩ .

(٣) شرح مسلم للنووي (١ / جزء ٢ / ٢٥) .

المتماذي في غيه والمسرف في بطالته إذا أمن أن يؤثر إغلاظه منكرًا  
أشد مما غيرَه لكون جانبه محمياً عن سطوة الظالم» (٣) أ.هـ.

قال الحلبي: «وينبغي أن يكون الأمر بالمعروف مميّزًا، يرفق في  
مواضع الرفق، ويعنف في مواضع العنف، ويكلم كل طبقة بما يعلم أنه  
أليق بهم وأنجع فيهم. ولا يخاطب أحداً بفضل من الكلام لا يحتاج  
إليه فينفره بذلك عن قبول موعظته، ولا يدخل عليه مدخلاً يصير  
سبباً لرد نصيحته، وكما لا ينبغي لمن يقوم بهذا الأمر أن يعنف في  
موضع الرفق فكذلك لا ينبغي له أن يرفق في موضع التعنيف لئلا  
يستخف قدره ويقضي أمره» (١) أ.هـ.

قال الغزالي - رحمه الله - : «إن إيذاء المسلم حرام محذور كما أن  
تقريره على المنكر محذور، وليس من العقلاء من يغسل الدم بالدم  
أو بالبول، ومن اجتنب محذور السكوت على المنكر واستبدل عنه  
محذور الإيذاء للمسلم مع الاستغناء عنه فقد غسل الدم بالبول على  
التحقيق» (٢) أ.هـ.

هذا وإن من أهم ما ينبغي معرفته أنه لا منافاة بين الرفق  
والغضب .. بمعنى أن الواجب على المسلم أن يغضب إذا انتهكت  
حرمات الشرع كما كان النبي - ﷺ - يفعل في تلك الحال .

---

(١) المنهاج للحلبي (٣/٢١٨).

(٢) الإحياء (٢/٣٢٥).

ولكن هذا لا يعني لزوم التغليظ بالقول أو القيام بالضرب إن كانت المصلحة لا تقتضي ذلك!

فالحاصل أن الإنسان قد يرفق أشد الرفق وهو يمتلى بأشد الغضب.. كما أنه قد يعنف من دون حصول الغضب في النفس، وهذا معلوم يكفي التنبيه عليه.

وبهذا تعلم أن الغضب عند انتهاك المحارم الشرعية مطلب شرعي، وأمانة على الغيرة على الدين ورسوخ الإيمان في النفس.

أما الرفق والغلظة فأداتان للتغيير يختار المحتسب أصلهما لحال المحتسب عليه.

والأدلة على ما ذكرت من غضب النبي - ﷺ - ما رواه أبو مسعود البدرى - رضي الله عنه - قال: « جاء رجل إلى النبي - ﷺ - فقال: إني لأتأخر عن صلاة الصبح من أجل فلان مما يطيل بنا! فما رأيت النبي - ﷺ - غضب في موعظة قط أشد مما غضب يومئذ فقال: يا أيها الناس: إن منكم منقريين، فأيكم أمّ الناس فليوجز...»<sup>(١)</sup>.

وكذلك ما روته عائشة - رضي الله عنها - بقولها: « قدم

---

(١) البخاري في كتاب: العلم، باب: الغضب في الموعظة والتعليم إذا رأى ما يكره، حديث رقم (٩٠) (١٨٦/١) وذكره في موضعين آخرين، انظر الأحاديث رقم (٧٠٢، ٦١١٠)، ومسلم في كتاب: الصلاة، باب: أمر الأئمة بتخفيف الصلاة في تمام، حديث رقم (٤٦٦) (٣٤٠/١).

رسول الله ﷺ من سفر وقد سترتُ سهوة لي بقرام فيه تماثيل، فلما رآه رسول الله ﷺ - هتكه وتلون وجهه وقال: يا عائشة: أشد الناس عذاباً عند الله يوم القيامة الذين يضاھون بخلق الله»<sup>(١)</sup>.

ومن ذلك ما جاء عنها أنها قالت: «... إن قريشاً أهمهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت فقالوا: من يكلم فيها رسول الله ﷺ - ؟ فقالوا: من يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حب رسول الله ﷺ - ؟ فكلمه أسامة، فقال رسول الله ﷺ - : «أتشفع في حد من حدود الله تعالى»؟ ثم قام فاخطب، ثم قال: إنما أهلك من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد...»<sup>(٢)</sup>.

ومن هذا الباب أيضاً ما جاء عن أنس - رضي الله عنه - «أن النبي

---

(١) البخاري في كتاب: الأدب، باب: ما يجوز من الغضب، حديث رقم (٦١٠٩) ١٠/٥١٧، وذكره في مواضع أخرى، انظر الأحاديث رقم: (٣٧٤، ٥٩٥٤، ٥٩٥٥، ٥٩٥٧، ٥٩٥٩)، ومسلم في كتاب: اللباس باب: تحريم تصوير صورة الحيوان، حديث رقم: (٢١٠٧) ٣/١٦٦٦.

(٢) البخاري في كتاب: فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب: ذكر أسامة بن زيد، حديث رقم (٣٧٣٢ - ٣٧٣٣)، وذكره في مواضع أخرى، انظر الأرقام: (٤٣٠٤، ٦٧٨٧، ٦٧٨٨)، ومسلم في كتاب الحدود، باب: قطع السارق الشريف وغيره، حديث رقم (١٦٨٨) (٣/١٣١٥).

(٣) البخاري في كتاب: العمل في الصلاة، باب: ما يجوز من البصاق والنفخ في الصلاة، حديث رقم (١٢١٣) (٣/٨٤)، وذكره في مواضع أخرى، انظر الأحاديث رقم: (٤٥، ٤١٤، ٤١٧، ٥٣١، ٥٣٢، ٦١١١)، ومسلم في كتاب: المساجد، باب: النهي عن البصاق في المسجد في الصلاة وغيرها، حديث رقم (٥٤٧) - (٥٥٠) (١/٣٨٨، ٣٨٩).

– رأى نخامة في القبلة فشق ذلك عليه حتى رُئيَ في وجهه،  
فقام فحكّه بيده...» (٣).

وكذا غضبه ﷺ حينما خرج على بعض أصحابه وهم يتجادلون  
في القدر حتى كأنما فُقي في وجهه حب الرمان!! (١).

والأمثلة كثيرة وما ذكرنا فيه الكفاية إن شاء الله تعالى . وقد بوب  
لهذا البخاري – رحمه الله – في صحيحه فقال: باب ما يجوز من  
الغضب والشدة لأمر الله عز وجل، وقال الله تعالى: ﴿جَاهِدِ الْكُفَّارَ  
وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ...﴾ (٢).

قال أبو معمر القطيعي: «لما أُحضرنَا إلى دارالسلطان أيام المحنة،  
وكان أحمد بن حنبل قد أُحضر، فلما رأى الناس يجيبون، وكان  
رجلاً لينا فانتفخت أوداجه واحمرت عيناه، وذهب ذلك اللين،  
فقلت: إنه قد غضب لله . فقلت: أبشر – وحدثه عن أبي سلمة قال:  
كان من أصحاب رسول الله – ﷺ – من إذا أُريد على شيء من أمر  
دينه رأيت حماليق عينيه في رأسه تدور كأنه مجنون» (٣).

---

(١) أخرجه أحمد، الزحاديث رقم: (٦٦٦٨، ٦٧٠٢، ٦٧٤١، ٦٨٠١، ٦٨٤٥،  
٦٨٤٦)، وابن ماجه، باب: في القدر، حديث رقم (٨٥) / ١ / ٣٣، وابن أبي عاصم  
في السنة، حديث رقم: (٤٠٦) / ١ / ١٧٧، وانظر: المشكاة / ١ / ٣٦، ٨٠. والحديث  
حسنه الألباني وصححه أحمد شاكر.

(٢) البخاري كتاب الأدب، باب: رقم (٧٥)، حديث (٤٠٦) (١٠/٥١٦).

ولما قال له الحسين الصائغ: «سألت أبا ثور عن اللفظية فقال: مبتدعة» غضب أحمد وقال: اللفظية جهمية من أهل الكلام، ولا يفلح أهل الكلام. أو كما قال. فأنكر على أبي ثور التساهل في الإنكار مع أن ما قاله أبو ثور صحيح. لكن رأى أحمد أنه لا يكفي في حقهم<sup>(١)</sup>.

## ٢ - البدء بالنفس<sup>(٢)</sup>:

قدمنا لك فيما سبق أن العدالة ليست بشرط للقيام بهذا العمل.. وإلا حكمنا بإبطال مهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وقد قيل:  
إذا لم يعظ الناس من هو مذنب فمَنْ يعظ الناس بعد محمد  
وليس معنى عدم اشتراط العدالة من أجل القيام بتلك المهمة أن لا يُلام من فرط فيها فارتكب محارم الله!!

بل القبح للذنب في حقه أعظم وأشد من غيره. ولذا كانت عقوبته في الآخرة من نوع خاص في جهنم!.. إنه يدور في أمعائه كما يدور الحمار في الرّحى.. كما جاء ذلك صريحاً في حديث أسامة بن

---

(٣) سير أعلام النبلاء (١١/٢٣٨).

(١) انظر الدرر السننية (٧/١٩٥) وللإطلاع على بعض الرسائل لأئمة الدعوة ومن ناصرهم المتضمنة لهذا المعنى انظر: الدرر (١/٣٨١، ٧/٢٧، ٢٥٨ - ٣٦١، ٨/٦١ - ٧٠).

(٢) انظر الإحياء (٢/٣٢٨)، القرطبي (١/٣٦٨)، تنبيه الغافلين (١١٠ - ١١٨)، الفتح المبين ٢٤٥، حاشية المدابغي ٢٤٥، غذاء الألباب (١/٢١٥ - ٢١٩)، لومع

زيد - رضي الله عنه - مرفوعاً: «يُجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقتابه في النار، فيدور كما يدور الحمار برحاه، فيجتمع أهل النار عليه فيقولون: أي فلان: ما شأنك؟ أليس كنت تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ قال: كنت آمركم بالمعروف ولا آتية وأنهاكم عن المنكر وآتية»<sup>(١)</sup>.

ومن لطيف المناسبة هنا أن الأمر بالمعروف والناهي عن المنكر وهو غير ممثّل لما يأمر به ولا تارك لما ينهى عنه قد وقع تشبيهه في هذا الحديث بالحمار! كما أن الله عزّ وجلّ شبه حال المعرضين عن الأمر والنهي والموعظة والتذكير بالحمار أيضاً فقال: ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ﴾ (٥٠) **فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ**<sup>(٢)</sup> فما أسوأ الحالين وما أحرى المسلم بالابتعاد عنهما!!

قال السفاريني - رحمه الله -:

ومن نهى عمّا له قد ارتكب فقد أتى مما به يُقضى العجب  
فلو بدا بنفسه فزادها عن غيرها لكان قد أفادها

وقال أيضاً: إنما يصح التأديب بالسوط من صحيح البدن، ثابت القلب، قوي الذراعين، فيؤلم ضربه فيردع، فأما من هو سقيم البدن لا قوة له، فماذا ينفع تأديبه بالضرب؟ والنفوس مجبولة على عدم

---

الأنوار البهية (٢/٤٣٠ - ٤٣٣)، أضواء البيان (١/١٧٢).

(١) مضى تخريجه ص ١٨٢.

(٢) المدثر الآيتان ٥٠، ٥١.

الانتفاع بكلام من لا يعمل بعلمه ولا ينتفع به» (٣) أ.هـ.

وإنما كان التشنيع على هذا الصنف من الناس .. لكونهم عالمين  
بوجوب ما تركوا، أو بتحريم ما اقترفوا .. ولا أدل على علمهم بذلك  
من أمرهم به أو نهيم عنه!!

وقد سبق أن قدمنا لك بعض النصوص الدالة على ذم هؤلاء كقوله  
تعالى: ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ  
أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (١).

وقوله: ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ (٢) بعد أن  
وبخهم بقوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ (٣)؟

فمن أجل ذلك كله قال شعيب - عليه السلام - لقومه: ﴿ وَمَا  
أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنِ ارِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا  
اسْتَطَعْتُ ﴾ (٤).

فإذا امتثل الأمر ما يأمر به، وانتهى عما ينهى عنه، قبل الناس  
دعوته وانشرحت صدورهم بسماع كلامه .. أما إن اختل ذلك فإنه  
يكون داعياً لهم بلسانه، راداً ومنفراً لهم بحاله، وقد تنبه لهذا المعنى  
عمر بن عبد العزيز رحمه الله .. فحينما ولي الخلافة وأراد أن يرد  
المظالم إلى أصحابها .. بدأ بنفسه وأهل بيته أولاً .. فوقف على المنبر

(٣) لوامع الأنوار البهية (٢ / ٤٣١).

(١) البقرة آية ٤٤ .

(٢) الصف آية ٣ .

(٣) الصف آية ٢ .

وقال: «أما بعد: فإن هؤلاء أعطونا عطايا ما كان ينبغي لنا أن نأخذها وما كان لهم أن يعطوناها، وأني قد رأيت ذلك ليس عليّ فيه دون الله محاسب، وإني قد بدأت بنفسي وأهل بيتي، اقرأ يا مزاحم. فجعل يقرأ كتاباً كتاباً ثم يأخذه عمر وبيده الجلم<sup>(١)</sup> فيقطعه حتى نودي بالظُّهر»<sup>(٢)</sup>.

وإن من خَبَرَ الناس وعرف حالهم علم أنهم ينظرون لمن يأمرهم بالخير وينهاهم عن الشر نظرة فاحصة تختلف عن نظرهم لغيره من سائر الناس.. فيرقبون حاله ومقاله وجميع تصرفاته.. كما يحصون عليه الكبير والقطمير.. بل وتضخم أخطاؤه في كثير من الأوقات.

فتقصيره – عندهم – لا يقف عليه وحده بل يتعداه إلى كل الأمرين بالمعروف والناهين عن المنكر! ثم يصير ذلك التقصير الذي شاهدوه عصاً في أيديهم يقومون بإشهارها متى ما يحلو لهم ذلك!!

فالحاصل أن المحتسب يلزمه أن يكون في موضع الأسوة والقُدوة الحسنة لا أن يدعو الناس باللسان ويصرفهم بالعمل والسلوك!

وما أحسن ما قيل<sup>(٣)</sup>:

---

(٤) هود آية ٨٨.

(١) أي المقرض.

(٢) سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ١٢٧.

(٣) هذا البيت لأبي الأسود الدؤلي وبعده:

وابدأ بنفسك فانهها عن غيرها      فإن انتهت عنه فأنت حكيم  
فهناك يُقبل إن وعظت ويُقتدى      بالقول منك وينفع التعليم

لا تنه عن خُلُق وتأتي مثله عار عليك إذا فعلت عظيم  
وقول الآخر<sup>(٤)</sup>:

وغير تقِيٍّ يأمر الناس بالتَّقَى طبيب يداوي الناس وهو سقيم  
وقال ثالث:

فإنك إذا ما تأت ما أنت أمر به تلف من إياه تأمر آتياً  
وقال منصور الفقيه:

إن قوماً يأمرونا بالذي لا يفعلونا  
لمجانين وإن هم لم يكونوا يُصرعوننا  
وقال أبو العتاهية:

وصفت التَّقَى حتى كأنك ذو تُقى وريح الخطايا من ثيابك تسطع  
٣ - المساواة بين القرابة وغيرهم<sup>(١)</sup>:

كما يجب على المرء أن يُقوِّم نفسه ويزكيها.. فإن عليه أيضاً أن  
يعنى عناية كبرى بقرابته ومن هم تحت ولايته.. وقد أرشد الله تعالى  
رسوله - ﷺ - لذلك فقال: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾<sup>(٢)</sup>.

وهذا التوجه إنما هو نابع من إدراك المحتسب لحقيقة الأمر بالمعروف  
والنهي عن المنكر.. إنه عملية إنقاذ وتخليص للأفراد والمجتمعات من

---

(٤) هو أبو عثمان الخيري.

(١) انظر المنهاج (٢/٢١٨).

الهلاك الدنيوي والعذاب الأخروي .

لكن حينما يخطئ المحتسب فهم هذه الحقيقة فإنه يجور في احتسابه ويحيد . . ! فيهمل قرابته، ويدع الاحتساب عليهم، لوجود دافع من الدوافع في النفس لذلك كالشفقة العمياء أو العاطفة الهوجاء!!

مع أنه لو تبصر لأبصر أن عين الشفقة إنما تكون في الاحتساب عليهم لتخليصهم من العقوبة المتوقعة .

والحق أن هذا السلوك المعوج ينبئ عن كون نية المحتسب مشوبة . . !! إذ الصدق مع الله تعالى ومع الناس يمنع من سلوك هذا المسلك الرديء المردي .

قال الخلال : « باب ما ينبغي للرجل أن يفعل ويعدل في أمره ونهيه في القريب والبعيد »، ثم قال : « أخبرنا أبو عبد الله المروزي قال : « قلت لأبي عبد الله : فإن كان للرجل قرابة فيرى عندهم المنكر فيكره أن يغيره، أو يقول لهم فيخرج إلى ما يغتم به من أهل بيته وهو لا يرى بداً، أو يرى المنكر في غيره فيكره أن يغير للذي في قرابته . قال : إن صحت نيتك لم تبال »<sup>(١)</sup> .

ومن آفات هذا المسلك اعتراض الناس على المحتسب بحال قرابته وأهل بيته كما يعترضون عليه بحاله إن كان غير ممثل كما تقدم . .

---

(٢) الشعراء آية ٢١٤ .

وكم يصرف مثل هذا المحتسب من القلوب عن قبول الحق والعمل به! .  
قال النووي - رحمه الله - : « ولا يتاركة أيضاً لصداقته ومودته  
ومداهنته . . فإن صداقته ومودته توجب له حرمة وحقاً، ومن حقه أن  
ينصحه ويهديه إلى مصالح آخرته وينقذه من مضارها، وصديق  
الإنسان ومحبه هو من سعى في عمارة آخرته وإن أدى إلى نقص في  
دنياه، وعدوه من يسعى في ذهاب أو نقص آخرته، وإن حصل بسبب  
ذلك صورة نفع في دنياه، وإنما كان إبليس عدواً لنا لهذا، وكانت  
الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - أولياء للمؤمنين  
لسعيهم في مصالح آخرتهم وهدايتهم إليها»<sup>(١)</sup> . آ . هـ .

هذا وقد يُعرض الرجل عن كثير من الاحتساب على قرابته وأهل  
بيته غفلة عن ذلك واشتغالاً بغيرهم . . وهذا هو الذائع الغالب!

ف نجد للمحتسب أو الداعي مع الناس مجاهدات وصبراً ومتابعة . .  
وبدلاً للمال والوقت والجهد في سبيل إرشادهم إلى الحق والخير، وأهله  
وقرابته أحوج ما يكونون إلى التوجيه والتعليم والنصح!!  
وهذه غفلة يقع فيها كثيرون مع إخلاصهم ونصحهم . .

٤ - البدء بالأهم وتقديمه على غيره،<sup>(٢)</sup> وأهمية التدرج في  
ذلك حسب ما تقتضيه المصلحة :

---

(١) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر للخلال ٦٤ .

(١) النووي على مسلم (١ / جزء ٢ / ٢٤) .

قال بعضهم :

إن اللبيب إذا بدا من جسمه مرضان مختلفان داوى الأخطرا  
إن معرفة الأولويات ومنازل الأعمال وما يترتب عليها فعلاً أو تركاً  
أمر ضروري للمحتسب في أزمنة الفترات، وتفشي وظهور المنكرات،  
واضحلال الديانة في قلوب كثير من الناس وواقعهم .. مثل هذا  
الزمان الذي نعيشه اليوم .

ولقد دل على ثبوت هذا المبدأ وشرعيته الكتاب والسنة، وعليه  
جرى عمل سلف الأمة .

وقد قص الله تعالى علينا قصص الأنبياء وأخبارهم مع أقوامهم  
فكان كل واحد منهم يخاطب قومه من حين بعثته إليهم بقوله :  
﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾<sup>(١)</sup> .

ومن المعلوم أنهم معصومون في أمور البلاغ والتشريع .. فطرائقهم  
وهديهم ومنهجهم كل ذلك معصوم ومحفوظ من وقوع الخلل فيه  
حال تبينه للناس وتبليغه لهم عن طريق هؤلاء الرسل – صلوات الله  
وسلامه عليهم أجمعين – .

ومن المعلوم أنهم لم يكونوا يبدؤون دعوتهم لأقوامهم بالحديث

---

(٢) انظر مجموع الفتاوى (٢٠/٥٨ - ٦١) .

(١) ورد هذا في مواضع عدة من القرآن : كما في الأعراف آية ٥٩، ٦٥، ٧٣، ٨٥، هود  
آية ٥٠، ٦١، ٨٤، النحل آية ٣٦، المؤمنون آية ٢٣، ٣٣، النمل آية ٤٥، العنكبوت

عن تحريم السكر أو الزنا أو نحو ذلك من الأمور.. وإنما كانوا يقررون لهم التوحيد أولاً ويجعلونه منطلقاً لدعوتهم.. ثم ينتقلون معه إلى معالجة كبرى المشكلات التي يعايشها ذلك المجتمع الذي يبعثون فيه.. وبعد ذلك ينتقلون إلى ما دونها وهكذا.

فهذا هو سبيلهم من أولهم إلى خاتمهم - ﷺ - الذي أنزل عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي...﴾<sup>(١)</sup> وأنزل عليه قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهِمُ آفْتَدَهُ﴾<sup>(٢)</sup>.

فقد كان هذا المنهج هو المنهج الذي سار عليه - صلوات الله وسلامه عليه - في دعوته.. روى البخاري بسنده عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: «إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا تاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء: لا تشربوا الخمر لقالوا: لا ندع الخمر أبداً. ولو نزل: لا تزنوا. لقالوا: لا ندع الزنا أبداً.

لقد نزل بمكة على محمد - ﷺ - وإني لجارية ألعب ﴿بَلِ السَّاعَةِ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةِ أَهْمِي وَأَمْرٌ﴾<sup>(٣)</sup> وما نزلت سورة البقرة

آية ٣٦.

(١) يوسف آية ١٠٨.

(٢) القمر آية ٤٦.

(٣) البخاري: في كتاب: فضائل القرآن، باب: تأليف القرآن، حديث رقم (٤٩٩٣)

الفتح (٣٨/٩).

والنساء إلا وأنا عنده» (٤).

وأخرج ابن بطة بسند جيد عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله تعالى: ﴿لِيَزِدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾ (٥): إن الله بعث نبيه - ﷺ - بشهادة أن لا إله إلا الله، فلما صدق بها المؤمنون زادهم الصلاة، فلما صدقوا بها زادهم الزكاة، فلما صدقوا بها زادهم الصيام، فلما صدقوا به زادهم الحج، فلما صدقوا به زادهم الجهاد، ثم أكمل لهم دينهم فقال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ...﴾ (١).

قال ابن عباس: وكان المشركون والمسلمون يحجون جميعاً فلما نزلت «براءة» نفى المشركون عن البيت وحج المسلمون لا يشاركهم في البيت الحرام أحد من المشركين، وكان ذلك من تمام النعمة، وكمال الدين فأنزل الله تعالى ﴿الْيَوْمَ يَأْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ﴾ (٢) إلى قوله: ﴿الإسلام ديناً﴾ (٣).

وبهذا التدرج كان يوصي - ﷺ - رسله ويأمرهم إذا بعثهم للقيام بالدعوة.. كما أخرج البخاري بسنده عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه قال: «قال رسول الله - ﷺ - لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن: إنك ستأتي قوماً أهل كتاب، فإذا جئتهم فادعهم إلى أن

(٥) الفتح آية ٤ .

(١) المائدة آية ٣ .

(٢) المائدة آية ٣ .

(٣) الإبانة الكبرى ٨١٥ .

(٤) البخاري: في كتاب: الزكاة، باب: أخذ الصدقة من الأغنياء وترد في الفقراء حيث

يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله تعالى قد فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله تعالى قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد في فقرائهم»<sup>(٤)</sup> الحديث .

هذا وقد تمثل هذا المنهج في دعوة الأئمة من بعده - ﷺ - ..

نقل ابن الجوزي وغيره أن عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز دخل على أبيه وهو في قائلته فأيقظه وقال : ما يؤمنك أن تؤتى في منامك، وقد رفعت إليك مظالم لم تقض حق الله فيها . قال : يا بني إن نفسي مطيتي، إن لم أرفق بها لم تبلغني؛ إني لو أتعبت نفسي وأعوانني لم يك ذلك إلا قليلاً حتى أسقط ويسقطوا؛ وإني لأحتسب في نومتي من الأجر مثل الذي أحتسب في يقظتي . إن الله جل ثناؤه لو أراد أن ينزل القرآن جملة لأنزله، ولكنه أنزله الآية والآيتين، حتى استكن الإيمان في قلوبهم . ثم قال : يا بني أما ما أنا فيه أمر هو أهم إلي من أهل بيتك، هم أهل العدة والعدد، وقبَلهم ما قبَلهم؛ فلو جمعت ذلك في يوم واحد خشت انتشاره علي، ولكنني أنصف من الرجل والاثنين فيبلغ ذلك مَنْ وراءه فيكون أنجع له، فإن يرد الله تمام هذا الأمر آتمه<sup>(١)(٢)</sup> .

فهذه حكمة بالغة لا يدركها حق إدراكها ويعمل بها كما يُطلب إلا مجدد أو محتذ حذوه .

---

كانوا، حديث رقم (١٤٩٦) الفتح (٣/٣٥٧) .

(١) مناقب عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ١٢٧ .

إن الفساد الذي ينخر في المجتمعات الإسلامية اليوم إنما هو حصيلة قرون متطاولة.. وقد عمل على تقريره وإذاعته وتعميق جذوره جبايرة ودهاقنة للفساد متتابعون! تباعدت أقطارهم واتحدت أهدافهم.. ومثل ذا لا يمكن أن يغير بيوم ولا سنة! وإنما يحتاج إلى مدة كافية تماماً يُروّض فيها الناس على التوحيد والإيمان والصدق بعد أن سفت السوافي على هذه الأمور العظام، وكادت أن تأفل من عالم الواقع..

أخرج البيهقي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال: «لقد عشنا برهة من دهرنا وأحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن، وتنزل السورة على محمد - ﷺ - فنتعلم حلالها وحرامها وآمرها وزاجرها وما ينبغي أن يوقف عنده منها كما تَعَلَّمُونَ أنتم اليوم القرآن؛ ثم لقد رأيت اليوم رجالاً يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان فيقرأ ما بين فاتحته إلى خاتمته ما يدري ما أمره ولا زاجره ولا ما ينبغي أن يقف عنده منه فينثره نثر الدقل»<sup>(١)</sup>»<sup>(٢)</sup>.

وأخرج ابن بطة بسنده أيضاً عن جندب - رضي الله عنه - قال: «كنا مع رسول الله - ﷺ - غلماناً حزاورة»<sup>(٣)</sup> فنتعلم الإيمان قبل أن

---

(٢) سيأتي المزيد من الإيضاح حول هذا المعنى عند الكلام عن التدرج إن شاء الله.

(١) الدقل: أردأ التمر. مختار الصحاح (مادة: دقل) ٢٠٨.

(٢) أخرجه البيهقي بهذا اللفظ في كتاب: الصلاة، باب: البيان أنه إنما قيل يؤمهم أقرؤهم (٣/١٢٠)، كما أخرجه الحاكم في المستدرک وقال صحيح على شرط الشيخين ولا أعرف له علة (١/٣٥) وإسناد هذا الأثر حسن.

نتعلم القرآن فازددنا إيماناً»<sup>(٤)</sup>.

فينبغي أن يبدأ بترسيخ الإيمان في النفوس أولاً.. وتعليم الناس توحيد الله عز وجل، وتصفية نفوسهم وواقعهم من الشرك ومظاهره.. ثم ينطلق الدعوة والمحتسبون إلى ما دونه من الأمور والتي تليه أهمية.. وهكذا.

وهذا لا يعني أن تقتصر الدعوة في أول أمرها على التوحيد فحسب، بل يكون هو المنطق والأساس والقاعدة التي يبنى عليها الأمر بالتخلي عن سائر الانحرافات الأخرى.

وهذا جلي فيما حكاه القرآن من دعوة الرسل، إذ كانوا يدعون إلى عبادة الله وحده مع كونهم ينكرون جرائم أخرى قد تفشت في أقوامهم كاللواط، ونقص المكيال والميزان، وقطع الطريق، وما إلى ذلك من الانحرافات المتنوعة.

وإنما آفة هذه الحكمة التعجل الذي غالباً ما يكون ناتجاً عن ضعف العلم والبصيرة، ولذا جاء في الحديث: «التأني من الله والعجلة من الشيطان»<sup>(١)</sup>. وكما في الحديث الآخر: «السمت الحسن، والتؤدة،

---

(٣) حزاورة: أي غلمان أشداء. انظر القاموس (مادة: حزر).

(٤) الإبانة الكبرى رقم ١١٣٦.

(١) أخرجه أبو يعلى، حديث رقم (١٥٠٢) (٢٤٨/٧)، والبيهقي (١٠٤/١٠)، وانظر الهيثمي (١٩/٨)، المطالب العالية حديث رقم (٢٨١٢) (٣٥/٣) وحسنه الألباني كما في صحيح الجامع رقم (٣٠٠٨)، والسلسلة الصحيحة، رقم (١٧٩٥).

(٢) أخرجه الترمذي في السنن، كتاب: البر والصلة، باب: ما جاء في التأني والعجلة.

والاقتصاد، جزء من أربعة وعشرين جزءاً من النبوة»<sup>(٢)</sup>.

ثم إن هذا المنهج كما يطبق في تغيير واقع المجتمعات فهو كذلك يطبق في دعوة الأفراد على حد سواء.

ولشيخ الإسلام - رحمه الله - كلام نفيس جداً في هذا المقام حيث يقول: «.. فإذا ازدحم واجبان لا يمكن جمعهما فقدم أو كدهما، لم يكن الآخر في هذه الحال واجباً، ولم يكن تاركه لأجل فعل الأوكد تارك<sup>(١)</sup> واجباً في الحقيقة، وكذلك إذا اجتمع محرمان لا يمكن ترك أعظمهما إلا بفعل أدناهما لم يكن فعل الأدنى في هذه الحال محرماً في الحقيقة، وإن سُمي ذلك ترك واجب وسُمي هذا فعل محرّم باعتبار الإطلاق لم يضر، ويقال في مثل هذا: ترك الواجب لعذر، وفعل المحرم للمصلحة الراجحة، أو للضرورة، أو لدفع ما هو أحرم، وهذا كما يقال لمن نام عن صلاة أو نسيها إنه صلاها في غير الوقت المطلق قضاء».

وهذا باب التعارض - باب واسع جداً لا سيما في الأزمنة والأمكنة التي نقصت فيها آثار النبوة، وخلافة النبوة، فإن هذه المسائل تكثر فيها وكلما ازداد النقص ازدادت هذه المسائل، ووجود ذلك من أسباب الفتنة بين الأمة...

فأما إذا كان المأمور والمنهي لا يتقيد بالممكن إما لجهله وإما لظلمه،

---

رقم (٢٠١٠) (٤/٣٦٦)، وانظر المشكاة رقم (٥٠٥٩)، صحيح الجامع رقم

ولا يمكن إزالة جهله وظلمه، فرمما كان الأصلح الكف والإمساك عن أمره ونهيه كما قيل: إن من المسائل مسائل جوابها السكوت، كما سكت الشارع في أول الأمر عن الأمر بأشياء والنهي عن أشياء حتى علا الإسلام وظهر. فالعالم في البيان والبلاغ كذلك قد يؤخر البيان والبلاغ لأشياء إلى وقت التمكن، كما أقر الله سبحانه إنزال آيات وبيان أحكام إلى وقت تمكن رسول الله ﷺ تسليمها إلى بيانها.

يبين حقيقة الحال هذه أن الله يقول: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾<sup>(١)</sup>.

والحجة على العباد إنما تقوم بشيئين: بشرط التمكن من العلم بما أنزل الله، والقدرة على العمل به. فأما العاجز عن العلم كالمجنون أو العاجز عن العمل فلا أمر عليه ولا نهي، وإذا انقطع العلم ببعض الدين أو حصل العجز عن بعضه كان ذلك في حق العاجز عن العلم أو العمل بقوله كمن انقطع عن العلم بجميع الدين أو عجز عن جميعه كالمجنون مثلاً. وهذه أوقات الفترات، فإذا حصل من يقوم بالدين من العلماء أو الأمراء أو مجموعهما كان بيانه لما جاء به الرسول شيئاً فشيئاً بمنزلة بيان الرسول لما بعث به شيئاً فشيئاً، ومعلوم أن الرسول لا يبلغ إلا ما أمكن علمه والعمل به، ولم تأت الشريعة جملة، وكما يقال: إذا أردت أن تطاع فأمر بالمستطاع.

كذلك المجدد لدينه، والمحيي لسنته، لا يُبَلِّغُ إلا ما أمكن علمه والعمل به، كما أن الداخل في الإسلام لا يمكن حين دخوله أن يُلَقَّنَ

(٣٥٨٦، ٣٠٠٧)، وانظر شرحه في الدرر السنية (١/٣٠٦ - ٣٠٧).

جميع شرائعه ويؤمر بها كلها؛ وكذلك التائب من الذنوب، والمتعلم، والمسترشد، لا يمكن في أول الأمر أن يؤمر بجميع الدين ويذكر له جميع العلم، فإنه لا يطيق ذلك، وإذا لم يطقه لم يكن واجباً عليه في هذه الحال، وإذا لم يكن واجباً لم يكن للعالم والأمير أن يوجبه جميعه ابتداءً، بل يعفو عن الأمر والنهي بما لا يمكن علمه وعمله إلى وقت الإمكان، كما عفى الرسول عما عفى عنه إلى وقت بيانه، ولا يكون ذلك من باب إقرار المحرمات وترك الأمر بالواجبات؛ لأن الوجوب والتحرير مشروط بإمكان العلم والعمل، وقد فرضنا انتفاء هذا الشرط، فتدبر هذا الأصل فإنه نافع.

ومن هنا يتبين سقوط كثير من الأشياء وإن كانت واجبة أو محرمة في الأصل لعدم إمكان البلاغ الذي تقوم به حجة الله في الوجوب أو التحريم، فإن العجز مسقط للأمر والنهي، وإن كان واجباً في الأصل»<sup>(١)</sup> أ.هـ.

فإذا كان الشخص أو الطائفة جامعين بين منكر كبير ومنكرات دونه أنكرنا أولاً المنكر الأكبر كأمر الاعتقاد؛ لأنها تُقدّم على ما دونها من الانحرافات.. لكن إن أمكن إنكار المنكر الأقل دون الأكبر لعذر صحيح يتعلق بالاحتساب، أو كانت المصلحة في ذلك عائدة على الحسبة نفسها أو المُحتسب عليه.. فإنه ينكر الأَدْوَنُ في هذه الحالة.

وقد يقدم المحتسب إنكار المنكر الأقل لمصلحة تقتضي ذلك في بعض الأحيان، كمن رأيته يريد الزنا أو شرب الخمر وأنت تعلم أن

---

(١) هكذا في المطبوع.

الرجل لا يزكي ماله، أو يتصف بمنكر هو أعظم من الزنا والشرب للمسكر دون الشرك بالله.. ففي هذه الحال يقدم إنكار الزنا أو الشرب لإبعاده عنه قبل الوقوع فيه فالدفع أسهل من الرفع.

### ثم إن الطاعة أو المعصية تتعاضم باعتبارات عدة:

**الأول:** باعتبار الفاعل. فإذا كان الذي يُقدم على المعصية ممن يُقتدى به فإن هذا أخطر من إقدام الأعمار عليها. ولهذا كانت زلة العالم زلة العالم.

وعليه فرنه يتوجه على أهل الكمالات والمناصب من العتبيما يُخل بمقامهم ما لا يتوجه على غيرهم<sup>(١)</sup>.

**الثاني:** باعتبار الزمان. فليس الذي يشرب المسكر في نهار رمضان كالذي يشربه في غيره وهكذا.

**الثالث:** باعتبار المكان. إذ المعصية أو الطاعة في الحرم أعظم منها خارجه.

**الرابع:** باعتبار ما يترتب على العمل من الآثار<sup>(٢)</sup>. ولهذا كانت البدع أشد ضرراً وخطراً من المعاصي الأخرى الواردة من باب الشهوات. وكذلك المعصية المتعدية أعظم من القاصرة على الفاعل.

ومن المعلوم أن المنكرات أقسام: فمنها ما يكون ظلماً للناس،

---

(١) الإسراء آية ١٥.

(٢) مجموع الفتاوى (٢٠/٥٧ - ٦١). مع الاختصار.

كالوقوع في أعراضهم، أو سفك دمائهم، أو نهب أموالهم.. ومنها ما يكون ظلماً للنفس، كالشرب للخمر أو المخدر وغيرهما من المعاصي التي لا يتعدى ضررها على غير فاعلها. والقسم الثالث وهو ما كان يجمع بين هذا وذاك كمن يغتصب النساء، ويزني بهن، أو يأكل الربا.. وهذا النوع الأخير هو شر تلك الأنواع وأخطرهما، ويليه الأول، وأقلها الثاني.. وأنت إذا تأملت النوع الأول منها رأيت أن فيه ظلماً للنفس في حقيقة الأمر وباطنه؛ فإذا رأينا من يجمع بين بعض هذه الأنواع فينبغي أن نقدم الإنكار للأعظم.

هذا واعلم أن جنس فعل الواجبات أعظم وأعلى من جنس ترك المحرمات، فيكون الإنسان مستحقاً للذم والإثم حال كونه تاركاً واجباً من الواجبات أكثر من استحقاقه ذلك عندما يكون مرتكباً لشيء من المنهيات؛ ولهذا كانت عقوبة إبليس لما امتنع من الامتثال للأمر الطرد والإبعاد من رحمة الله.. بينما كانت عقوبة آدم - عليه السلام - لما كان ذنبه من قبيل ارتكاب المحظورات الإخراج من الجنة وإهباطه إلى الأرض.

وبهذا تعلم أنه إذا اجتمع في شخص ترك واجب وفعل محرم قُدم الإنكار على ترك الواجب أولاً.. هذا من حيث الجملة، وإن كان الحكم قد يختلف في بعض الصور والحالات، كما إذا كان ترك الواجب المعين أقل جرماً وإثماً من ارتكاب المحرم المعين، كمن ترك الصلاة مع الجماعة وفي نفس الوقت هو مقدم على القتل أو ضرب أحد والديه.. فيقدم في هذه الحال إنكار ارتكاب المحرم

(١) انظر الموافقات ٤ / ٦٣، ٦٤.

(٢) انظر كلاماً مفيداً حول هذه القضية في الموافقات (٢ / ٢٩٨).